

ألبير كامو وأعراس البدايات

أ. د. حمزة الزاوي - مخبر الفلسفة وتاريخها -

جامعة وهران 2 محمد بن أحمد

Abstract

Albert Camus was called the artist as he liked to be nicknamed, the artist of the beginnings, which draws all his strength and fantasies. All of Camus's literary and philosophical works, including his critical and political writings, and even his own impressions of nature and mankind, took us to a special image of an artistic world, which is in fact the world of the artist-writer with all its implications, dreams, rebellion and revolution. Political and other press investigations.

Key words: Camus, literature, Algeria-France, Colonialism, critics, culture.

البدايات هي بداية التجريب والاكتشاف، الاندهاش في حياة كل فنان. كما أن البدايات هي صفة البراءة المطلقة التي تدعو لوليمة الحياة لمباهج الكون، لكنوز المعرفة، لإرادة الفعل. ان الفنان كامو كما كان يحلوه أن يلقب، فنان البدايات فمنها يستمد كل قوته وخيالاته. ان كل أعمال كامو الأدبية والفلسفية بما فيها كتاباته النقدية والسياسية وحتى تلك الانطباعات الخاصة حول الطبيعة والانسان تحيلنا إلى عالم فني خاص، هو في الحقيقة عالم الفنان- الكاتب بكل تداعياته واحلامه وتمرده وثورته العارمة التي يسجلها بأشكال مختلفة، روايات، مسرحيات، دراسات فلسفية، كتابات سياسية تحقيقات صحفية وغيرها.

كل ذلك يمثل عالم الفنان الذي يعيش عصره، منتقدا موضحا وفاعلا في كل ما يحيط به. في هذه المقاربة لأعمال كامو الأولى سنحاول ملامسة عالم الفنان من خلال مجموعة من المحطات هي في الواقع محطات أساسية في مساره الإبداعي.

1- أعراس وصيف الجزائر

كان ارتباط البير كامو بأرض الجزائر ارتباط لا يضاهيه ارتباط آخر. فالجزائر الأرض والطبيعة، الشمس والبحر، الجبال والصحراء هي الملاذ الأول والأخير في كتاباته وفي حياته الخاصة. يقول كامو: "ان كل مملكتي من هذا العالم".

في الثلاثينات من القرن الماضي يكتشف هذا الفتى الفقير أن له ما يقوله، وسيضع الخطوط العريضة والكبيرة لذلك في كتابه الأول "الوجه والقفا" في هذا المؤلف الصغير يدخلنا كامو إلى مملكته التي سيقوم بتشبيدها خلال حياته القصيرة نسبيا والحافلة جدا. صدر هذا الكتاب سنة 1937 في طبعة محدودة لم تتعدى 350 نسخة وقد أهده المؤلف إلى استاذة وصديقه جان غرونييه. كل العناصر الأساسية والجوهرية لعالمه الفني والأدبي ستحملها تلك الصفحات.

فعالم الأنوار إلى جانب الفقر والمرض ثم بعد ذلك المواقف الثابتة المتوثبة المكافئة هي المواجهة الأولى والأخيرة التي سيثبتها الكاتب في كل أعماله ومواقفه. يخلص جرمين بري في كتابه "البير كامو" إلى القول ملخصا ذلك بالقول "ففي كتابه الأول نرى العناصر الدرامية الجوهرية لعالمه الأدبي أن فيها ادراكا واضحا للمحسوس من الصور والمواقف والناس".¹

ففي هذه النصوص الأربعة التي تشكل "الوجه والقفا" يتولد لدينا احساس بأننا أمام بيانات تعلن عن ميلاد جديد، كتابة جديدة تختلف كل الاختلاف عن ما تعودنا عليه. انها كلمات وجمل تهمس لنا بإصرار نكتشف فيها طبيعة الصراع بين الإنسان وذاته. يقول كامو "حب حقيقي أكثر من كل ما سيأتي من بعد... بالنسبة لي أعرف أن "منبعي" هو في "الوجه والقفا" في عالم الفقر والأنوار أين عشت طويلا وأين الذكريات، لا زالت تحييني من الخطرين المضاضين واللذين يهددان كل فنان، الحقد والرضى".²

ان الفقر والنور هي العوالم الحقيقية التي ترعرع فيها الفنان عالم الفقر والعوز والحاجة يفضي حتما إلى الحقد على الآخرين. وعالم الأنوار والشمس والدفء اللذين كان مرتع لحياة الطفل ثم المراهق. وهذا ما جعل كامو وبعد سنوات يثمن ذلك التمرد الذي اعتبره تمردا من أجل الجميع، من أجل أن تكون حياة الآخرين مرصعة بالأنوار³ لذلك فإن كامو سيتولد لديه احساس خاص لملامسة الجمال والنور الذي يشع منه.

ويكون أول نص يلج به فضاء الكتابة وسحر الإبداع بعد كتابه الأول، نص متفتح على الأرض والشمس والبحر إنه "أعراس" ثم "الصيف". صفحات تتقاطر منها مياه عذبة ووجوه ملائكية وأرواح بشرية تبحث عن كل ما هو متناغم لتسكن فيه.

يقال أن بداية كل الفنانين والفلاسفة هي بداية شعرية. بهذه النصوص يؤكد كامو تلك المقولة ويبرهن عليها. يبين الفنان عن حب لا حدود له للفضاء، للمكان. فالجزائر الأرض والبحر تلهمه رغم فقره بأنوارها وحتى بأهاليها.

في "أعراس تيبازة" يخطو المؤلف خطواته الأولى نحو تحديد الجمال يقول: "في الربيع، تيبازة تسكنها الآلهة، والآلهة تتكلم بحديث الشمس ورائحة الأفنستين، والبحر المدرع بالفضة، والسماء الزرقاء اللاظية، والخرائب الملتحفة بالأزهار، والنور الذي يتدفق عظيمًا بين أكوام الحجارة. في أوقات معينة، يكون الريف أسود من الشمس. تحاول العين عبثًا أن تلتقط شيئًا آخر غير قطرات النور..."⁴ يحتفل الفنان بأنوار هذه الأرض أنه يتحد معها، يمجدها، وطوال تلك الصفحات يجعلنا نتوق إلى رؤية ذلك العالم الحقيقي والسحري، عالم "تيبازة" وعالم "جميلة".

يبدو جليًا أن ألبير كامو كان يصدر عن حب حقيقي ليس فقط لتلك الفضاءات النورانية، بل كذلك لأهالي تلك الأمكنة التي يجعلها الكاتب مسكونة بأرواح ملائكية. يصبح كامو بكل قواه في النص الثالث من هذه المجموعة "الصيف في الجزائر" "إن هذا البلد بدون دروس. إنه لا يعد بشيء ولا يحمل على الأوهام. انه يكتفي بأن يعطي، لكن ما أعظم أريحيته في العطاء. انه يهب نفسه بأسرها إلى العين وانك لتعرفه ما أن تتمتع به.

إن ملذاته لا دواء لها. وأفراحه تظل بلا أمل. وما يتطلبه هو نفوس نيرة، أي لا تقبل عزاء. أنه يطلب أن يقوم الانسان بفعل صاح مثلما يقوم بفعل ايمان. يا للبلد الفريد الذي يهب الانسان الذي يغديه عظمته وبؤسه في آن واحد! وليس من المدهش أن يكون الغني الشهواني الذي يتمتع به انسان حساس من هذا البلد متوافقا مع منتهى التجرد.

ليس ثمة من حقيقة لا تحمل معها مرارتها. فأني عجب إذن إذا كنت لا أحب وجه هذا البلد إلا وسط أبنائه الأكثر فاقة!"⁵

نلاحظ من خلال هذا النص أن الكاتب يصر على حبه لهذه الأرض لكن وسط أبنائها الأكثر فاقة. إنه يعلن ذلك صراحة وبطريقة تبعث على التسليم بإيمان الفنان ولكن هل كان كامو يقصد فعلا أبناء هذا البلد؟

كآاباته السياسية ومآلاته سترك شكا كبير حول هذا، لأن تصريآات وكآابات أخرى لكاهو بعد سنوات ستآعل منه بل من موافقه آآاه أبناء البلد نسم بالكثير من الغموض وهو الذي كان دائما المدافع عن الحقيقة.

2- مدينة الحجارة

يعود كامو في مجموعته الثانية "الصيف" إلى آآيد الأرض والاحتفال بها. فبعد مدينة الجزائر وتيبازة، يعرج الفنان نحو إحدى المدن الساحلية و التي أقام فيها عند زوجته -فرنسين- مدينة وهران. يتآد الكاتب في هذا النص المعنون:

"وهران أو مستقر المينوتور ORAN, ou la halte du MINOTAURE « عن مدينة لا تاريخ لها؟ عن مدينة تدير ظهرها للبحر عكس مدينة الجزائر عن مدينة فيها أآمل "أآار" العالم. يسترسل كامو في وصفه المتدفق لأآار لا نآدها في مكان آخر كما يقول.

انها عبقرية المكان، مكان يتصف بالحضور في كل الطرقات وعلى أطراف المدينة. "لا يمكننا معرفة ما هو الحجر دون أن نأتي إلى وهران... في هذه المدينة المغبرة بين كل شيء فإن الحجر هو الملك" رغم ما تمثله الأآار وما يلتصق بها من أتربة وغبار تبقى المدينة في مواجهة العالم، مدينة لها كل خصوصيات المدن الكبرى التي تآلق في أجواء المستقبل.

تبدو وهران مدينة بدون ماض بدون تاريخ، مدينة البدايات أو البراءة، هكذا يتصور كامو وهران ولعل هذا ما يلخص كل الموافق العاطفية والسياسية لفنان يآهل تاريخ المكان. يبدأ الكاتب في سرد التاريخ المثقل بالأحداث الجسام التي تروىها تلك المدن في القارة العجوز.

باريز، فلورونس، براغ، ستسبورغ، امستردام... انها مدن مثقلة ومشحونة بالماضي القريب، ماضي يتآد عن نفسه من خلال نعمات "موزارت" وجيوش تلك المدن المتصارعة.

ويقدم لنا الكاتب مدينة تلتف على نفسها تآح عن نفسها تلتصق بسماؤها وبأآارها يآلنا إلى طرقات وهران المغبرة بأناسها بمراهقيا بفتيانها وفتياتها واصفا تلك الرغبة في الحياة وفي ملذاتها على حلبات الملاآمة، وفي صآب الطرقات والشوارع، وفي قاعات السينما المنتشرة في المدينة. أما المحلات التجارية والمقاهي فهي الأماكن ذات الخصوصية المطلقة لمدينة يآمي سكانها بتلك البنيات "القبيحة". علاقة المدينة بالصحراء هي علاقة وشيآة توحى بالانعزال بالخصوصية بآتابان الرمال المترامية على شطآنها.

أما الألعاب فلا يمكن اختصارها في لعب الأوراق. فالملاآمة تؤدي إلى صراع ممت بين مدينتين وهران والجزائر(العاصمة) وينتهي دوما الى تبسيط كل شيء الجيد والقبيح، المنتصر والمنهزم. أما

الحديث عن النصب فهو حديث عن معالم المدينة يختار كامو وصف بناية بواجهة خاصة أنها بيت أو منزل المعمّر " Maison du Colon "، مركزاً على الطابع المعماري وعلى رمزية الفسيفساء التي تظهر السيد المعمّر تجاه عبيده.

ثم مسهباً في الحديث عن الأسدين اللذين يزينان مدخل دار البلدية في مواجهة الساحة الكبيرة. يتخيل كامو نزول الأسدين إلى الساحة الكبيرة من عليائهما ودورانهما طوال الليل في تلك الساحة. ويعود كامو مرة أخرى إلى معنى الأجرار المرصعة التي تقف شاهداً على ديمومة المدينة. انه يعرف بإحساسه أن عظمة هذه الأجرار لا يمكن تحطيمها رغم الجرافات وسواعد آلاف العمال لتطويع تلك الأجرار إلا أنها ستبقى في مكانها لن تبرح الأرض التي شهدت ميلادها. وحتى بعد ذلك وعندما سيتم الانتهاء من شق طريق الكورنيش ستبقى الأجرار شاهدة على مكانها من جبل "سنطاكروز" إلى "كنستيل". إن كامو يعرف هذا جيداً لهذا فهو يصر على وصفه وصفاً دقيقاً مختلطاً بمباهج الكون الأولى لأن كل صباحات وهران توحى وتحيل إلى صباحات العالم والحياة على هذه الأرض.

1- الصحراء

صفحات ملتبة، تلتصق بالمكان وتعطيه معناه في مجموعته الثانية "الصيف" يدهشنا كامو بأنشودته المتواصلة حول الجزائر، فقد انتهت المجموعة الأولى "أعراس" إلى تمجيد الصحراء بصمتها وسكونها، بتلك العظمة اللامتناهية التي يتيه الإنسان في متاهاتها حسب تعبير بورخيس⁶

في هذه النصوص الممجدة لمعاني الصحراء لصفائها وعمقها، يقترب الكاتب أكثر فأكثر من العمق السحيق للمكان الذي تحويه الجزائر بكبد يمتد من البحر إلى الصحراء عبر جبالها وتلالها. ان الصحراء كفضاء للأحلام ستردد كثيراً في مجموعته الأولى والثانية كما في أعماله الأخرى ستكون العمق والخلفية التي ستأطر أجمل قصصه القصيرة خاصة في الزوجة الخائنة ضمن مجموعته القصصية الوحيدة (المنفى والملكوت)⁷

أن الفضاء الجغرافي حسب يوري لوتمان يهدف إلى خلق رموز جغرافية⁸ والصحراء كتعبير أسمى وأنقى للفضاء تكتسي عند كامو تلك الرغبة وتلك الشهوة التي تفتق عن عناصر المكبوت الإنساني. الصحراء برمالها اللانهائية وسماها الممتدة تعبر عن الكون المطلق وعن فضاءاته السحيقة التي لا تحدها العين ولا يدركها البصر. يلجأ البير كامو في كل كتاباته السردية إلى محاولة احتواء الفضاءات الممتدة.

ونجد هذه المحاولة اساسا في كتاباته الأولى بحيث يعود الفضاء الصحراوي في أغلب تلك النصوص.

كما أن رمزية الفضاء الجغرافي من خلال الصحراء يجد انصهاره في ذاك الوصف المسترسل لحبات الرمل ولرياح الرمل الهوجاء كما يظهر ذلك في اتساع الليل الصحراوي وانبساط وتناثر ملايين النجوم اللامعة.

رمزية الصحراء وفضائها والليل ونجومه والرغبة الانسانية المطلقة والمتحدة مع هذا الفضاء الجغرافي المتحد بدوره بطقوس تجمع بين ثنائية الارض والسماء. يبدو ذلك جليا خاصة في تلك الصورة الابداعية التي رسمها الفنان في قصته "الزوجة الخائنة".⁹

إن ابداع كامو في بداياته الاولى يحيلنا الى مجموعة من الاكتشافات التي تتقاسمها مع تلك النصوص وهذا سر مقروئية أدب الفنان الذي يدهش بأساليبه ومغامراته المعبرة عن روح وجوهر البدايات.

¹ بري جرمين. البير كامو ترجمة جبرا ابراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، ط2، 1981، ص90.

² CAMUS Albert. *L'envers et l'endroit*, Ed Gallimard. Paris 1958, p13.

³ Ibid p13.

⁴ كامو البير. أعراس - ترجمة جورج طرابشي، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت 1970، ص13.

⁵ كامو البير. الصيف في الجزائر- ضمن أعراس - ترجمة جورج طرابشي، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت 1970، ص34.

⁶ بورخيس خ-ل . المرايا والمتاهات. ترجمة ابراهيم الخطيب، دار توبقال -المغرب. 1987، ص13.

⁷ CAMUS Albert. *L'exil et le royaume in œuvres complètes*. Tome1, Bibliothèque de la pléiade, Paris. P.1552.

⁸ لوثنان يوري. سيمياء الكون، ترجمة عبد المجيد نوسي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2011، ص144.

⁹ CAMUS Albert. *L'Exil et le royaume*, op. cit. P1552.